خصائص بعلبك قديماً

في الصناعة والزراعة

مَن قابل بين ما كانت عليه مدينة الشمس في الازمنة السالفة وما آلت اليه حالتها اليوم في الصناعة والزراعة يتولاه العجب والاسف لانحطاط شأنها وتقلّص ظلّها وعدم انتفاع اهلها بما خُصَّت به من طيب الهواء وعذوبة الماء وخصب التربة ورخص الاجور فيها وفي برّها. وهذه المزايا هي التي احلّتها قديماً محلها بين المدن الصناعية والزراعية في الشام. ومما اشتهرت به شهرة فائقة واتسمت به تجارتها نسيج عرف باسم «البعلبكي» كان يحمل الى آفاق الشرق وتنفق به الاسواق لاقبال العامة والخاصة عليه، ولاسيما في البلاد المصرية. وكان ينشأ احياناً من قلة المجلوب منه او من احتكاره وارتفاع اسعاره شغب في الاسواق وتظلم من الجنود والعمال وذوي الحاجة والفقراء لاعتيادهم اياه وعدّه من الالبسة المباحة شرعاً. قال البدر العيني في حوادث سنة ٨٠٥ (١٤٠٢ م):

«في هذا الشهر (رجب) ارتفعت الاسعار جدًّا في انواع القماش فوصل الثوب البعلبكي الذي طوله ثلاثون ذراعاً الى اربعمائة درهم.»[1]

وروى ابن تغري بردي في اخبار جمادى الاولى سنة ٨٦٢ (١٤٥٨م):

«في يوم الاحد السابع عشر خاشنت المماليك الصاحب جمال الدين ناظر الجيش الخاص في اللفظ بسبب غلوّ سعر الثوب البعلبكي»[2]

واكثر ما كان يعمل من القطن وقليلاً من الصوف، يبلغ طول الثوب منه ثلاثين ذراعاً في عرض ذراع ونصف؛ ومنه صنف رفيع يعمل للملوك يكون ابيض في الصيف. قال ابن تغري بردي ايضاً في حوادث سنة ٨٦٢ (١٤٥٨م):

«في يوم الجمعة رابع عشر جمادى الآخرة لبس السلطان القماش الابيض

---

١) عقد الجمان في تاريخ اهل الزمان، باريس ١٥٤٦، ص ٦١

٢) النجوم الزاهرة، طبعة ليدن، ٧: ٥٠

البلبكي المدّ لايام الصيف على العادة في كل سنة »[1] وكان الملك الظاهر خشقدم لا يعجبه من البلبكي الا ما تزيد قيمته على ثلاثين ديناراً[2] .

ومن اقبح ما دفع اليه الطمع في الاستئثار بارباح هذا الصنف واشباهه من الملبوس ان الملك الظاهر برسباي الذي حجر على اكثر انواع المتجر في ايامه رسم في شهر رجب سنة ٨٣٢ (١٤٢٩م) « ان يكون صنف البلبكي والعاتكي والموصلي للسلطان لا يشتريه ممن يجلبه الى القاهرة ويبيعه في الناس الا هو »[3]

ومن هذه الاثواب الملوكية كانت تكون احياناً هدايا نواب دمشق للسلاطين ففي سنة ٧٩٩ (١٣٩٧ م) « وصل نائب الشام الى مصر . . . وارسل تقدمة الى السلطان عشرة مماليك . . . وخمسة وعشرون جملاً محملة نصافي وبلبكي ونحو ثلاثين جملاً محملة فاكهة وحلاوة ومخلّات وغير ذلك ».[4]

وفي تاريخ ابن اياس ان الحاكم بامر الله لما قتل وزيره الامير برجوان « احتاط على موجوده فوجد له الف سروال من البلبكي الحال وفي كل سروال نافجة مسك وتكة حرير ابيض »[5] . ولكن في خطط المقريزي ان الالف سروال كانت دبيقية[6] اي من نسيج كان يعمل في دبيق، بُليدة من اعمال مصر، كانت بين الفرما وتنيس تنسب اليها الاثواب الدبيقية .

ولم يكن البلبكي لباساً وجمالاً للاحياء فقط بل كان ايضاً ثوباً وصواناً للموتى ومن تذكر كثرة الطواعين في مصر وهلاك الالوف بها يتحقق المقدار الهائل من الاكفان التي كانت تتخذ منه غالباً لمواراة الموتى وما يعقب اشتداد الطلب عليها من ارتفاع الاسعار ورواج التجارة والجلب ، وفي ذلك ما لا يخفى من المنافع والارباح لبلبك

ومما عرفت به ايضاً نوع من الاردية يسمّى الإحرام، وهو ثوب واسع لا اكمام

---

١) النجوم الزاهرة ٧ : ٥٠١

٢) » » ٧ : ٧٦٠

٣) السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي، باريس ١٧٣٧ ، ص ٢٤١

٤) ذيل ابن قاضي شهبة ، باريس ١٥٩٩ ، ص ١٢

٥) تاريخ مصر لابن اياس ١ : ٥١

٦) الخطط ٣ : ٥

له ولا بطانة يتردى به الرجل. واكثر ما يلبسه اهل المغرب والاندلس. قال ابن بطوطة لما مرّ ببلدة قُسَنطينة في المغرب: «تلقانا حاكم المدينة وهو من الشرفاء فنظر الى ثيابي وقد لوّثها المطر فامر بغسلها في داره وكان الاحرام منها خَلَقاً فبعث مكانه احراماً بعلبكياً وصرّ في احد طرفيه دينارين من ذهب»[1]

ويظهر ان بعلبك عرفت ايضاً صناعة الزنانير والبنود القطنية واكثر ما كان يتخذها المماليك بمصر. ورى المقريزي انه «كان من الرسم في الدولة التركية ان السلطان والامراء وسائر العساكر... تكون اوساطهم مشدودة ببنود من قطن بعلبكي مصبوغ عوضاً عن الحوائص»[2]

ولا يخفى ما تقتضيه كل هذه المصنوعات والارتفاعات من تعدد العمال ودربتهم على الحياكة وفنونها، وألفتهم اساليب التجارة والارتفاق، ولا شك ان بعلبك لم تنفرد بها بل شاركتها في الاهتمام بها واستبضاعها بلاد اخرى في الشام. وانما نسبت الى بعلبك خاصة لانها كانت السابقة الى طريقتها والتوفر عليها فاشتهرت بها وحدها. ولم نجد لاحد نصّاً صريحاً على زراعة القطن في بعلبك وبرّها وقراها ويبعد جدّاً ان لا تكون تخصصت بها مع افتقارها الى القطن وشدة الطلب عليه وقتئذ لاوربة وعلى منسوجاتها منه لمصر. وقد شهد البشاري المقدسي، في القرن الرابع للهجرة، ان بعلبك مدينة قديمة فيها مزارع وعجائب[3]. ولكنه لم يفصّل شيئاً من هذه المزروعات، وكان القطن وقتئذ عاماً في حماة وحلب وطرابلس وبيروت، ومنه في برّ دمشق نوع قصير الساق، وكانت الحولة معدن الاقطان[4].

وعرفت بعلبك ايضاً، فيما عدا النسيج، «الدهان الفائق في الماعون مما يستحسن ويحمل منه الى كثير من البلاد.»[5] ويُراد بالماعون كل ما يُنتفع به من الآنية في البيت كالقدر والمركن والفأس والقدوم ونحوها. ومن آنية البيت والمائدة

---

١) رحلته ١ : ٦٠ و ٤٨

٢) الخطط ٣ : ١٦٠، وتاريخ ابن اياس ١ : ١٢٠

٣) احسن التقاسيم ١٦٠

٤) احسن التقاسيم ١٦٠

٥) نزهة النواظر لابي الفضل بن شحنة، مسوّدة بخطّه بالمكتبة الاحمدية بحلب.

الصحاف والملاعق الخشبية . وكان لاهل بعلبك صنعة خاصة بها شاهدها ابن بطوطة ووصفها بقوله :« ويُصنع بها اواني الخشب وملاعقه التي لا نظير لها في البلاد وهم يسمّون الصحاف بالدسوت وربما صنعوا الصحفة وصنعوا صحفة اخرى تسع في جوفها واخرى في جوفها الى ان يبلغوا العشرة يُخيّل لرائيها انها صحفة واحدة. وكذلك الملاعق يصنعون منها عشرة واحدة في جوف واحدة ويصنعون لها غشاء من جلد ويمسكها الرجل في حزامه واذا حضر طعاماً مع اصحابه اخرج ذلك فيظن رائيه انها ملعقة واحدة ثم يخرج من جوفها تسعاً»[1].

وكانت الاواني الخشبية المدهونة في بعلبك لا يكاد يخلو منها جهاز العرائس في الشام ومصر وعيرها. ويستدلّ على ذلك مما رواه المقريزي في اخبار زواج انوك ابن السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٣٢ / ١٣٣٢ قال : « خرج شوارها من القصر وكان عدد الحاملين ثمانمائة حمال . . . النحاس الشامي اثنين وعشرين حمالاً والبعلبكي المدهون اثني عشر حمالاً»[2].

واما المزروعات فاكثرها قديماً للاعناب روى البشاري المقدسي ان بعلبك كانت معدنها ولذلك اشتهرت بصناعة الدبس والملبن،وعدّ ياقوت الفرزل من قرى بقاع بعلبك وقال: يعمل بها الملبن المسمّى بجلد الفرس وهو من خصائصها[3]. ولما مرّ ابن بطوطة ببعلبك كان الملبن لا يزال معروفاً بها وصفه بقوله :« بها يصنع الدبس المنسوب اليها وهو نوع من الرُبّ يصنعونه من العنب ولهم تربة يضعونها فيه فيجمد وتكسر القلّة التي يكون بها فيبقى قطعة واحدة وتصنع منه الحلوا. ويجعل فيها الفستق واللوز ويسمّون حلواه بالملبن ويسمونها ايضاً بجلد الفرس.»[4]

وببعلبك اليوم بقية بقيت من الفواكه الكثيرة التي كانت فيها قبلاً ومنها اصناف اشتهرت خصوصاً بالنسبة اليها عدّ منها الصفدي في «تذكرته» والبدري

---

١) رحلته طبعة باريس ١ : ١٨٧

٢) الخطط ٣ : ١١٠

٣) معجم البلدان ٣ : ٨٧٣

٤) رحلته ، طبعة وادي النيل ، ١ : ٤٨

في «محاسن الشام»: المشمش البعلبكي والتين البعلبكي والكمثرى البعلبكي والقراصيا البعلبكية . وقد انقطعت القراصيا منها بعد ان كانت متوفرة فيها جدًا حتى قال ابن بطوطة ان «بعلبك بها من حبّ الملوك ما ليس في سواها»[1] واهل المغرب والاندلس يدعون القراصيا حب الملوك[2]. وروى فيه المقريّ قول بعضهم:

ودوح تدلّى اغصانه رعى الدهر من حسنه ما اشتهى
فما احمرّ منه فصوص العقيـ ـق وما اسودّ منه عيون المها[3]

ومن انواع التفاح التي زالت كذلك من بعلبك «التفاح اللبناني» ومن شهوده المحفوظة حجر أدمج منكساً في حائط الجامع الكبير الغربي ببعلبك من خارجه فيه كتابة سلطانية من عهد الملك الظاهر برقوق (١٣٦٤) جاء فيها: ان «ببعلبك تتفق فيها في كل سنة مظلمة ... وهو ان جماعة من البلّاصين يطوفون في كل سنة على البساتين يطلبون من اهلها التفاح اللبناني...»

وفيما عدا الدبس قال ياقوت: ببعلبك جبن وزيت ولبن ليس في الدنيا مثلها يضرب بها المثل . ونقل ابياتاً لاعرابي قال فيها في تشبيه البياض:

«او جبنةٌ من جبن بعلبك»[4].

ونقل ابن بطوطة ان بعلبك «كثيرة الالبان وتجلب منها الى دمشق»[1].

ولا ريب انه كان هناك زراعات وصناعات أخر لم يتفق لاحد الاشارة اليها او لم توفق للعثور عليها. وفي ما اوردناه منها تذكرة لقوم يعقلون.

---

١) رحلته ١ : ٤٨
٢) مفردات ابن البيطار ٤ : ٨
٣) نفح الطيب ٣ : ٢٤١
٤) معجم البلدان ١ : ٦٧٤